مرمورة وأحكام قراقوش

ناقشت الندوة قصة الأطفال "مرمورة وأحكام قراقوش". تأليف: يعقوب حجازي. رسومات: أنا فورلاتي. صدرت في أواخر العام 2009 عن منشورات مركز ثقافة الطفل- الأسوار في عكا، وهي مطبوعة على ورق صقيل، وبغلاف مقوى، وبألوان مفروزة، وشكلٍ جذاب، وصفحات غير مرقمة.

جميل السلحوت:

المضمون

تتحدث القصة عن سمكة اسمها مرمورة جاءت إلى المدينة من مصر مع الأمير بهاء الدين قراقوش، وعاشت فيها ردحًا من الزمن إلى أن أفرج

قراقوش، صاحب الأحكام الغريبة العجيبة المضحكة، عنها، وعادت مع رفيقاتها إلى مصر موطنها الأصلي.

الهدف

من حق القارئ أن يتساءل عن الهدف من القصة، فهل أراد الكاتب تسلية الأطفال والترويح عنهم؟ أم أراد، أيضًا، أن يطرح من جديد الحيرة حول تاريخ قراقوش كما جاء في آخر القصة: "وقد حاروا في أمره، أهو أمير عادل؟ أم هو حاكم ظالم أصدر أحكامًا غير عادلة"؟

وهل تركه عدم الإجابة عن أسباب الحيرة، وعدم التعريف بسيرة قراقوش كان مقصودًا، أم أن الكاتب يجهلها؟ أم أن الكاتب أراد أن يقارن بين المظالم والأحكام الّتي يتعرض له شعبه، وبين ما ينسب من فكاهات حول قراقوش؟

فمن هو قراقوش هذا؟

إنه كما جاء في (وكيبيديا- الموسوعة الحرة): "أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين (- 597هـ) كان خادم صلاح الدين الأيوبي وقيل خادم أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين فأعتقه، ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعل له زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوّض أمورها إليه، واعتمد في تدبير أحوالها عليه، كان رجلًا مسعودًا، حسن المقاصد، جميل النية، وصاحب همة عالية،

فآثاره تدل على ذلك، فهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة، ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر الّتي بالجيزة على طريق الأهرام، وعمّر بالقدس رباطًا، وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل، وله وقف كثير لا يعرف مصرفه.

ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها وقع أسيرًا في أيديهم، وافتك نفسه منهم بعشرة آلاف دينار في سنة 588هـ، ففرح به السلطان فرحًا شديدًا، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين، واستأذن في المسير إلى دمشق ليحصّل مال إقطاعه فأذن له.

والناس ينسبون إليه أحكامًا عجيبة في ولايته، حتى إن للأسعد بن مماتي، له جزء سماه "الفاشوش في أحكام قراقوش"، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، حيث إن صلاح الدين كان معتمدًا عليه في أحوال المملكة، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوّضها إليه، وتوفي بالقاهرة سنة (597هـ).

قراقوش: وهو لفظ تركي معناه بالعربي العُقاب، الطائر المعروف، وبه سمي الإنسان.

قضى ما يزيد على ثلاثين عامًا في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي وابنيه."

فهل رجل، بهذه السيرة العطرة، يستحق أن يكون موضع سخرية من الناس عبر أجيال؟! علمًا أن بعض المصادر التاريخية تقول إن قراقوش ابن أخ المجاهد والقائد الفذ صلاح الدين الأيوبي، وأن قراقوش كان عادلًا رحيمًا يقيم حدود الله كما هي، ولا تأخذه في الحق لومة لائم، ومع ذلك كان يبكي على الضحايا الذين ارتكبوا جنايات وحوكموا عليها، مع أنه كان من المفروض أن لا يقعوا فيها، وهذا ما لم يعجب الأسعد بن مماتي الذي ألف كتابًا ساخرًا عن قراقوش سماه: "الفاشوش في أحكام قراقوش"، فتداولها العامة، وأضاعوا التاريخ الحقيقي لمجاهد وقائد ووالٍ عادل، ترك آثارًا تدل على حنكته وعدله.

وواضح أن أحداث القصة تدور في مدينة عكا مكان إقامة الكاتب، لكنه لم يذكر اسمها، بل ذكر ما يدل عليها: "بدا برج المنارة شامخًا يتحدى الأمواج، ويرنو إلى شاطئ البحر المحاذي لأسوار المدينة العتيقة العريقة في مرسى عيسى العوام" (ص1)، كما أن الرسم الموجود على الصفحة الثانية هو رسم لسور عكا التاريخي، لكن من أين للأطفال وحتى للبالغين الذين لا يعرفون عكا أن المقصود بهذا مدينة عكا، فعدم ذكر اسم عكا خلل في القصة كان بالإمكان تجنبه.

الرسومات والإخراج

الرسومات الّتي قامت بها الفنانة آنا فورلاتي رسومات جيدة ومناسبة للموضوع، ويتضح أن الفنانة اعتمدت فيها على الرسومات الإسلامية المنسوجة على السجاجيد في العصور الوسطى، وعلى نقوش وزخارف قصور الخلفاء والأمراء في تلك المرحلة، كما أن الإخراج والمونتاج وفرز الألوان كان غاية في التوفيق أيضًا.

موسى أبو دويح:

ركزت القصة على الجانب المفترى على الأمير قراقوش، والذي عاصر صلاح الدين الأيوبي وصاحبه. وهذا هو أكثر ما يعنيني في القصة، ولذلك رجعت إلى "البداية والنهاية" لابن كثير، ونقلت لكم بعض ما جاء فيها عن الأمير قراقوش.

قال ابن كثير عنه: "هو الفحل الخصي أحد كبار كتاب أمراء الدولة الصلاحية، كان شهمًا شجاعًا فاتكًا، تسلم القصر لما مات العاضد وعمّر سور القاهرة محيطًا على مصر أيضًا، وانتهى إلى المقسم وهو المكان الذي اقتسمت فيه الصحابة ما غنموا من الديار المصرية. وبنى قلعة الجبل، وكان صلاح الدين سلمه عكا ليعمر فيها أماكن كثيرة فوقع الحصار وهو بها، فلما خرج البدل منها كان هو من جملة من خرج، ثم دخلها ابن

المشطوب. وقد ذكر أنه أسر فافتدى نفسه بعشرة آلاف دينار، وعاد إلى صلاح الدين ففرح به فرحًا شديدًا، ولما توفي في هذه السنة احتاط العادل على تركته وصارت أقطاعه وأملاكه للملك الكامل محمد بن العادل.

قال ابن خلكان: وقد نسب إليه أحكام عجيبة، حتى صنف بعضهم جزءًا لطيفًا سماه كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش، فذكر أشياء كثيرة جدًّا وأظنها موضوعة عليه، فإن الملك صلاح الدين كان يعتمد عليه، فكيف يعتمد على من بهذه المثابة والله أعلم". (البداية والنهاية لابن كثير، الجزء الثالث عشر، الصفحة 31).

وكتب متولي عكا من جهة السلطان صلاح الدين وهو الأمير بهاء الدين قراقوش، في العشر الأول في شعبان إلى السلطان: إنه لم يبق عندهم في المدينة من الأقوات إلا ما يبلغهم إلى ليلة النصف من شعبان، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، خوفًا من إشاعة ذلك فيبلغ العدو فيقدموا على المسلمين وتضعف القلوب. (البداية والنهاية، الجزء الثاني عشر، الصفحة 337).

وقد أشار بعضهم على السلطان بتخريب مدينة عكا خوفًا من عود الفرنج إليها، فكاد ولم يفعل وليته فعل، بل وكّل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش التقوى. (البداية والنهاية، الجزء الثاني عشر، الصفحة 327).

داود إبراهيم الهالي:

في الحقيقة أن قصة "مرمورة وأحكام قراقوش" تضمنت عددًا من الخصائص جديرة بالاهتمام والنقد، لا سيما وأنها ستقتحم خيال أطفالنا، وتقدّم لهم معرفة بسيطة، ستكون بمثابة أساس سيبنى عليه تخيلات وتصورات تتعدى مجرد كونها حكاية يلهو بها الأطفال. ومما يزيد من قيمة هذه القصة أنها تغترف من الماضي شظايا تاريخية شكّلت المكان الذي قدّم فيه يعقوب حجازي قصته.

ولعل ما يثير الاهتمام في هذه القصة، أن قسمًا لا يستهان به من مجرياتها يدور في ساحة قصر قراقوش، وهذا ما يدفع إلى البحث في الأدبيات العربية الإسلامية للتأكد من دقة ما ذهب إليه يعقوب حجازي من تصوير قراقوش بأنه شخصية تدعو إلى السخرية والفكاهة في إصدار الأحكام.

ووفقًا لابن خلّكان، فإن هذه الأحكام يبعد وقوع مثلها منه، والظاهرُ أنها موضوعة. والمرجو هنا من كاتبي أدب الأطفال أن يتحرّوا الدقة في تقديم المعلومة؛ فهي ستكون لبنة أساسًا، يبنون عليها تصورات وأفكارًا قد لا يكون من السهل تبديلها.

وقراقوش هذا هو أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الذي يعود له الفضل في تقديم خدمات جليلة في الديار المصرية، وكان معماريًّا

وحكيمًا، وكان له حقوق كثيرة على السلطان، وعلى الإسلام والمسلمين[♦]، ولولا هذا كلّه لما ولاّه صلاح الدين إمارة عكا بالغة الأهمية في عصره. وهذا ما يتناقض مع التصوير الذي يقدّمه يعقوب حجازي، ومن قبله من الأدباء.

قصة "مرمورة وأحكام قراقوش" تكاد أن تكون مجموعة من الرسومات الجميلة (22 صورة)، يتخللها بعض النصوص هي مادة القصة. وهنا يمكن القول إنَّ إغراق القصة بالرسومات الزائدة، كما جرت عليه العادة في قصص الأطفال، أمرٌ يحدُّ من الخيال، ويقصّر من إبداع الأطفال بدلًا من إطلاقه.

بعدها جرى نقاش مطول شارك فيه كلّ من: الناقد إبراهيم جوهر، وسمير الجندي، وآخرون.

♦ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. المجلد الرابع. دار الثقافة. بيروت. ص191-92.

روض حسين:

قصة مسلية وممتعة.. رسوماتها معبرة وألوانها جذابة

نجح الكاتب في رسم صورة جميلة للأمير قراقوش؛ فهو أمير طيب القلب، ومرهف الإحساس، وهو أيضًا مع الضعيف على القوي.

هو مع الحمار الجائع وضد صاحبه الظالم، ومع السمكة مرمورة البعيدة عن عائلتها وضد الصياد.. أي أنه صديق الحيوان، فقد ذكّرني بـ(بريجيت باردو) ملكة الإغراء في زمانها، فبعد أن كانت وظيفتها ومهمتها العطاء دائمًا، لم تبخل بعطائها للحيوان من حنو ورحمة وعطف.

أما السؤال المفتوح للكاتب: هل قراقوش حاكم ظالم أم عادل؟

وهو سؤال ذكي.. بهذا السؤال يقول للطفل: **فكّر.**

هل هو من وجهة نظرك ظالم أم عادل؟ فكلّ طفل سيجيب جوابًا يناسب ما فهمه من القصة، وهذا يعطيه فضاء للتفكير، بعكس القصص الّتي تعطي الجواب أحيانًا قبل السؤال، ولا يستفيد الطفل من القصة إلا صف الحروف وتركيب الجمل، أما العقل فرحمة الله عليه.

أما جوابي أنا على السؤال فهو: "حاكم رحيم وعادل، وليس بحكيم؛ لأن الحُكم يحتاج إلى حكيم".

(القدس 29/ 4/ 2010)